شبه متمرد

شبه متمرد
قصص
أحمد إسماعيل عمر
الطبعة الأولى : ٢٠١٥

دار الحلم للنشر والتوزيع
٤ شارع الأشراف - من شارع مؤسسة الزكاة - المرج - القاهرة
موبايل : ٠١١٤١٨٢٤٥٦٢
dar_el7elm@hotmail.com
المدير العام : د.إسلام فتحى

تصوير فتوغرافي وتصميم الغلاف : محمد عبد السلام (ريديش ديزاين)
إخراج داخلي : الحلم للدعاية والإعلان

رقم الإيداع : ٢٠١٤/١٩٧٧٤
رقم الترقيم الدولي : 978-977-6412-80-4

إن دار الحلم للنشر والتوزيع، غير مسؤولة عن آراء المؤلف وأفكاره، وتعبر الآراء الواردة في هذا الكتاب عن آراء المؤلف، ولا تعبر بالضرورة عن آراء الدار .

أحمد إسماعيل عمر

شبه متمرد

الفهرس

٧ بنت وجدتها
١٣ الطمع
٢١ عامود التلغراف
٢٧ يسرق لأول مرة
٣٧ لقاء غير متوقع
٤١ حلم فاسد
٤٥ ساق مبتورة
٥١ علاقة
٥٩ شبه متمرد
٦٥ استهزاء

إهداء

إلى أبي ..

«وربما كان جمود الأشياء من حولنا مفروض عليها من جراء يقيننا ولا شيء سواها, ومن جراء جمود فكرنا في مقابلها»

مارسيل بروست

بنت وجدتها

كانت تقف خارج الدار إلى جانب الباب القديم، الحائل اللون، الذي تتوسطه مطرقة من الحديد على هيئة كف امرأة تمسك بكرة صغيرة أو بيضة حمامة، كما كانت تقول هي لصديقتها عزة.. فطالما تمنت نورا أن تكبر بسرعة حتى تطولها كي تنبئ بصوت طرقها الحاد جدتها عائشة بعودتها إلى الدار، وأيضًا حتى يكفيها ذلك من الوقوف طويلاً أمام الباب منتظرة بسبب ضعف سمع جدتها التي لا يصلها طرق كفها الرقيقة وصياحها الضعيف.. وفي حالة أن تكون نورا بالمدرسة أو تلعب مع البنات تبقى جدتها وحيدة داخل الدار، فقد ولَّت الأيام التي كانت تلتف فيها النساء حولها منصتات إليها بعدما ملت حناجرهن الزعيق في أذنيها.

عائشة هذه كانت جدتها لأمها، عندها سبعون عامًا، حدباء ونحيفة، وجهها القمحي كان ذا جلد سميك مجعد، وشفتاها كانتا مطبقتين على بعضهما بعد أن خسرت أسنانها، التي خلال الأعوام الماضية كانت تعمل على زراعة قيراط واحد من الثلاثة قراريط التي ورثتها عن زوجها، أما القيراطان فتؤجرهما لأحد أقاربها من بعيد.

في تلك الأيام كانت تستيقظ باكرًا في صباح كل من الاثنين والخميس، ثم تحمل مقطفها الممتلئ بالفجل والجرجير والكراث قاصدة سوق البلدة. أما الآن فهي لا تفعل شيئًا سوى الانتظار إلى أن يحين موعد الإيجار القليل وزكاة الفطر.

كانت نورا تعيش في كنف جدتها منذ أن توفي والداها فاطمة وجلال اللذان التهمتهما النار في أثناء ما كانت هي تحبو عند عتبة الدار.. كانت نورا تتكئ بجسدها النحيل فوق يديها المتشابكتين وراء خصرها على حائط نخرت الرطوبة أسفله كما لو كان على وشك الانهيار. وبينما هي تخفض رأسها ذا الشعر الأسود المتهدل على وجهها حتى صدر جلبابها الأحمر القصير الذي يكشف عن ساقيها الرفيعتين كانت أصابع قدميها تعبث في التراب. هل كانت تكتب شيئًا فوق الأرض المتربة بأصابع قدميها؟ ربما! والذي يراها

مثلما أراها الآن عبر قضبان نافذة دارنا التي كانت تطل على الطريق فسوف يلاحظ مدى شرودها وتكشيرة وجهها التي تظهر خلسة من بين خصلات شعرها الغزير كلما تلتفت، فيما تبدو وكأنها تلهج بكلمات ساخطة وهي تتمتم بشفتيها.

لم يكن وقوفها يعني أنها تنتظر جدتها كي تفتح لها الباب، لأنه مفتوح بالفعل، وإن كان بشكل موارب، بل كانت متخاصمة معها فغادرت الدار كالعادة. أجل.. فكثيراً ما يحدث هذا حيث كنت أنا من يصلح بينهما أحياناً، وبخاصة عندما تكرر المرأة العجوز النداء عليها بصوت ملتاع يبدي قدر حبها لنورا، ولكن في تلك المرة استغربت أمر جدتها التي لم تنادها إلا مرة أو مرتين ثم سكتت. في البداية لم أجد في الأمر غرابة إلا عندما طال وقوفها بالخارج حيث كنت قد مللت تطلعي من النافذة فتراجعت إلى الداخل حتى أجلس أمام التلفاز الذي بدأ في عرض فيلم أفضل مشاهدته، في حين لم يكن في نيتي أن أعود مرة أخرى إلا أنني رغبت في إطفاء عطشي بماء «القُلّة» البارد، فرأيتها ما زالت هناك. بيد أنها لم تتزحزح عن مكانها شبراً واحدًا على الرغم من شمس الظهيرة الساخنة التي كانت تغمرها، حيث كان العرق يكسو وجهها الذي التصقت به بعض خصلات شعرها، بينما جعل التراب الذي يعلو قدميها يتحول إلى طين لزج.

وما أكد لدي خصامها لجدتها أنها لم تفكر أن تتحرك لكي تقف تحت ظلال شجرة الجميز القريبة، فقد كانت تريد أن تعنف نفسها حتى تستدر عطف جدتها - التي لم تبدِ نحوها أي رد فعل حتى الآن - أو أحد المارة.

وبالفعل هذا ما حدث، فبعد لحظات كانت هناك امرأة آتية من عند أول الطريق، تحمل فوق رأسها مقطفًا حيث تبدو أنها عائدة لتوها من السوق لأن اليوم هو الاثنين.

لم أكن أعلم من هي إلا حينما اقتربت، ترفل في ثوب غامق، حافية القدمين.. عندها عرفت فيها بخيتة زوجة الخفير عبد التواب، التي ظللت بعيني حتى

جاءت قبالتها، فنظرت إليها بعينين متسائلتين ثم توقفت:
- إنتي يا بت واقفة ليه كده تاخدك الشمس يا مضروبة.
لم تحرك نورا ساكنًا، مما زاد ذلك من غضب المرأة عليها فكادت تسبها، غير أنها أحجمت عندما وجدتها قد بدأت تبكي بصوت مرتفع. عند ذلك انحنت ووضعت ما كانت تحمله إلى جوار الحائط، وبعد أن اعتدلت أعادت لف طرحتها التي انزلقت على كتفها ثم اقتربت أكثر حتى أمسكت وجه نورا بين راحتيها الذي رأته مغسولا بالدموع ومشوبا بصفرة مفرطة. أشفقت المرأة عليها حيث مسحت لها دموعها بطرف طرحتها قبل أن تضمها إليها. وفي أثناء ذلك كانت تمسد لها شعرها لكي تهدئ من روعها وتبادلتا كلمات قليلة لم أستطع سماعها، إلا أنني خمنت أنها كانت تطلب منها الدخول إلى الدار حتى لا تضرها سخونة الشمس، وذلك عندما جذبتها برفق من يدها فنشبت نورا قدميها في الأرض وتسمرت مكانها، فيما جعلت تهز رأسها بالرفض إلى أن نضحت سيماء المرأة بالسخط، فقررت أن تتركها وشأنها وتدخل هي الدار بمفردها، في حين تراجعت نورا إلى الوراء ثم مالت على الحائط كما كانت، فحولت عيني عنها وصوبتهما باتجاه الباب في انتظار ملهوف لخروج المرأة، بعدما انتابني إحساس غامض أثقل على نفسي لطول مكوثها بالداخل، حيث حدست بأنها قد عثرت على جدة نورا ميتة.

الطمع

كان قد مضى على غياب الابن ثلاث سنوات. يومان ويطأ بقدميه أرض البلدة. الأب والأم قلباهما كانا يخفقان بالفرح والاشتياق. انقضى اليوم الأول ولم يتبقَ من اليوم الثاني سوى نصفه، فكان وقت الأصيل حيث تخلت الشمس عن حرارتها القاسية، فانطلق الهواء العذب من الخلاء مخترقًا الدروب، الذي لفح وجوها صبغتها الشمس بلون الأرض السمراء. في الباحة المواجهة لدار مرزوق عبد الدايم اصطفت الدكك التي جلس عليها الرجال وقليل من الصبية، وذلك بعد أن تناولوا طعامهم، فقد كان الذي يفرغ من طعامه يخلي مكانه من على «الطبلية» حتى يقعد أحد آخر. استمر ذلك إلى أن جلس كل الرجال على الدكك، أما الصبية فكانوا يمرحون في صياح مسرور أمام أعين آبائهم التي كانت تنبعث منها نظرات قريرة، والذين بامتلاء بطونهم خملت أبدانهم المتعبة من العمل في «الفاعل»، بينما كان كبار السن منهم قد ألمت بهم غفوة.

كان مرزوق قد أخذ على عاتقه إنهاء كل شيء كما أراد، حيث قرر أن يكرم الكل ويبسطهم؛ لذا لم يتوانَ عن تلبية نداء كل عين رجل تمنع لسانه في خجل.

كان يبلغ الخامسة والستين، طويل القامة، ينبئ ترهل جسده عن بدانة سابقة. كان معروفًا عنه أن شفتيه لا تجودان بالابتسام إلا في أوقات نادرة، ولكنه اليوم يفتر عن ابتسامة رائقة كأنها ستدوم إلى الأبد. ومع كبر سنه وماضيه المتخم بالإسراف والتهالك على الملذات، فإن جسده كان يفيض بنشاط وخفة يحسد عليهما، مما جعلهم يرمقونه بإعجاب.

كبار السن من أهل البلدة كانوا مطلعين على سيرته وسيرة عائلته الميسورة التي استأصل العقم والموت فروعها حتى تجمعت الثروة في يده، الذي بدوره بددها بالجري وراء هفوات بلا جدوى أشعلت الجنون بداخله كما لو كان يغترف من بئر لا تنضب إلى أن لطمه الفقر بقبضة قوية أفاق على أثرها فرأت عيناه ما لم يحتسب؛ حيث صدقت نبوءات زوجته التي طالما حذرته.

كان نتيجة ذلك أن تغرب ابنه الوحيد هربًا من الفقر إلى بلاد بعيدة بحثًا عن الرزق. لا أحد يكره مرزوق، حتى المتشددون أصبحوا يرثون لحاله الذي آل إليه الذين لا يفتأون يذكرون الناس بحكايته ليتعظوا. ولا أحد يلومه بعدما عرفوا أنه دائمًا ما يلوم نفسه ويعنفها. كانت عيون زوجته صباح كمرآة يرى فيها وجه الحسرة بأقنعة مختلفة. كان قد مضى وقت الأصيل حيث رويدًا رويدًا بدأت الشمس تسحب خيوط الغسق الواهنة نحو الغروب، فازداد الهواء برودة. عندها تفرق الجميع بعد أن رحبوا بعاطف وصديقه، فقد رفض أن يترك صديقه حسان يواصل السفر إلى بلدته الكائنة بأقصى الجنوب لما بدا عليه التعب، الذي طلب منه بإلحاح أن يستريح الليلة معه ثم يواصل السفر في صباح الغد.

ها هم جالسون تكتنفهم مودة صافية داخل «المندرة» التي يتألف أثاثها البسيط من ثلاث كنبات متهالكة، مفروشة بحصر «الحلف»، بلاطها مغطى بكليم أحمر متسخ. وكان ضوء ضعيف ينبعث من لمبة معلقة بالسقف. كان عاطف يسدد نظرات مليئة بالشوق نحو وجه أمه الوديع، فنظر إلى كل جزء فيه لعله يستعيد كنه تلك الرجفة الشجية التي ألمت بقلبه عندما دخل إلى الدار ورأى دموع الفرح الصادق تنهمر من عيونها. وكم كان يشتاق إلى أبيه على الرغم من عقبات الماضي، ولكنه قد اغتم عندما أحس بأن روحًا قلقة امتزجت بدمائه، كما لاحظ عليه نظراته العبثية المليئة بالغموض تطغى على فرحه بعودة ابنه.

أخذوا يتسامرون ويضحكون ويتذكرون حتى جاءت لحظة شعر فيها أبواه بأن عليهما مغادرة «المندرة» كي يرتاح عاطف وصديقه من عناء السفر، فجاءت أمه بأغطية لكي تحميهم من برودة منتصف الليل. أطفأت أمه اللمبة فساد الظلام الذي ألفته عيونهما بعد لحظات قليلة. كان كل منهما قد طرح جسده وأراح رأسه، بينما ما زال النوم يتردد في اقتحام عينيهما.

تجاذبا أطراف الكلام وهما موقنان أن ذلك لن يدوم طويلاً. كان الكلام يدور

مقتضبًا وبصوت خافت، متضمنًا ذكريات الغربة والعودة والعودة إلى الأهل والقلوب التي أضناها الشوق. وعلى الفور تذكر حسان أمه العجوز حينما كان يتململ بضيق تحت الغطاء حيث هاجمته البراغيث والبق إلى أن أصابه السأم. شعر عاطف بحال صديقه وخمن ما أصابه فاقترح عليه أن يأتي لينام مكانه. وافق حسان من دون أدنى خجل.

عندما مضى نصف الليل كان النوم قد غمر العيون فأسدلت جفونها إلا عيني مرزوق اللتان ظلتا ساهرتين متقدتين لا تطفئهما موجات الظلام الثقيلة التي تكتنف الحجرة. لا شيء كان يعوق اجتراره خواطره سوى أنفاس زوجته المرتفعة والمتحشرجة. ولم يكن بوسعه فعل شيء إلا أن يرمقها بنظرات المقت والازدراء ثم اجترار خواطرة التي تمر على مخيلته فترسم صورًا لا تلبث أن تتحرك بإيقاع منتظم على أنغام الماضي فتبعث بداخله أحاسيس قديمة، جعلت التعب يذهب عن جسده ويحلق في نشوة الحلم.

كانت أحاسيس متباينة يتذكرها جيدًا. يتذكر رائحتها اللزجة التي تزكم أنفه الآن، حيث تلاشت تحت وطأتها رائحة الرطوبة المتغلغلة بجدران الحجرة. هو الآن لا يرى الظلام، ولا يسمع أنفاس زوجته، تاركًا مشاهد حياته الماضية تتوالى بسرعة حتى تتراكم مكونة ندمًا محرقًا داخل روحه، تعقبه حسرة تجعله يحس بسكين ساكن بصدره فيكز على صدغيه. وببطء أخذت أنفاسه ترتاح إلى حد ما بعد أن بدء ذهنه في تقدير ما جاء به ابنه من مال، فعند ذلك تخلقت أحلام مسربلة في شكل جديد، ويزداد زهوه حين تقتبس تلك الأحلام ملامحها وظلالها من أيام الرخاء الذي عاشه في الماضي. ولكن نفسه كانت غير مقتنعة حيث جعل ينقم على تفائله عندما اندست به خواطر متشحة بالسخط. استمر على ذلك حتى تساءل في نفسه: أجتر خواطري مع نفسي أم مع الشيطان! النفوس الهاجعة تحتمي برب الليل وتطلب الطمأنينة والرحمة، بينما كانت الشياطين تتراقص أمام عينيه فوق جبهة الظلام. لاحظ أنفاس زوجته تعلو متسرعة على غير العادة وتصعد فوق موجات كابوسية.

ارتجفت أوصاله واقشعر بدنه ثم ساد صمت ثقيل بلا تكهنات. اقترب من وجه زوجته لينظر إليه بتمعن، فبالكاد كان يرى عينيها المستيقظتين، يشع منهما بريق غريب، يكشف بضوئه عن نظرة لها معنى كأنها تخاطبه بلهجة تعرفها خواطره، بل ربما كانت تلومها. بينما كانت أنفاسها المتلاحقة تهدم جدران الصمت، أغلقت عينيها وارتعدت ملامح وجهها، وفتحت فمها ببطء قبل أن تطلق صرخة مدوية خرجت ساخنة من جوفها. نهضت لتجلس بجسدها المعروق فأحست بوجود زوجها مستيقظًا بجوارها بعدما لاحظت اضطراب أنفاسه، الذي بنبرة متهدجة سألها عما بها. مضى وقت قليل قبل أن تستعيد هدوءها وترد عليه: رأيت الدم يلطخ جلبابك. التي لولا الظلام لذهلت من رؤية وجهه الممتقع. عندئذ ازدادت ضربات قلبه اضطرابًا لشعوره بالخوف من حدس زوجته الذي كان لا يخطئ أبدًا؛ حيث شعر بأن كل ما يجول بذهنه قد مر على ذهنها، والكابوس الذي داهمها وجعلها تفزع ما هو إلا دليل على أنها لاحظت نظراته المليئة بالطمع وهي مصوبة نحو حقيبة حسان صديق ابنه. كان القمر ما زال مستيقظًا في السماء ليرسل بنور شاحب يجعل العين بالكاد تتلمس خطاها في الدروب، بينما الفجر كان على وشك أن يترنم بصوته الرخيم. كان مرزوق يترنح بحمله الثقيل الذي يعتلي ظهره في درب ضيق يفضي إلى الخلاء. الدم الساخن يزكم أنفه ويلطخ جلبابه بعد أن تسرب من مسام الجوال. خاف أن يباغته صوت الفجر الذي يشعل اليقظة في عيون بعض الناس، كما لازمه إحساس بأن قواه ستنهار قبل وصوله إلى الترعة الكبيرة التي سيلقي فيها بحمله، في حين بدأ يفقد الإحساس بأطرافه المرتجفة. كان الخلاء أرضًا واسعة مليئة بالحفر ونتوء الحشائش، تدوي بين أرجائه أصوات الكلاب والقطط التي يرجع صدى صوتها خافتًا إلى الدروب، فيما كانت في تلك الأثناء وشوشة سعف النخيل القائم على الأطراف تناجي السماء.

عندما وصل عند حافة الترعة أنزل عن ظهره الجوال الغارق في الدماء ثم

انتصب بجسد منهك يكبل الخوف أطرافه، وذلك بعد أن جال بعينيه في الأرجاء واطمأن إلى عدم وجود أحد. ولكن قبل أن يهم بإلقاء الجوال في الترعة رأى من الأفضل أن يضع بداخله حجرًا ثقيلا من تلك الأحجار المرصوفة عند الحافة حتى يغوص إلى القاع بسرعة. فلما نظر بداخل الجوال أصابته رجفة صاعقة على أثرها اكتسى وجهه قتامة الندم المخبول الذي أصاب عقله، واتسعت عيناه في حرقة كي يرى المفاجأة المهلكة التي لم تكن في الحسبان. وبينما خيل إليه بأنه يصرخ بصوت خافت كان صراخه يزلزل الأفق الذي بدأ ينضح بنور الصباح.

عامود التلغراف

كان من عادتي أن أغادر بيتنا الكائن بغرب البلد، ذا الطابقين، كي أقابل بعض أصحابي الذين كانوا في الوقت نفسه زملاء لي بمدرسة «الشيخ زين العابدين الابتدائية» حيث كنت أبلغ وقتئذ ثمانية أعوام.. أزيد عنهم في الطول، نحيفًا مثل أكثرهم، غامق السمرة، ضيق العينين، شعر رأسي ناعم، غير أنه لا يبدو كذلك بسبب مداومتي على تقصيره بناءً على تعليمات ناظر المدرسة.

غالبا ما يتم لي ذلك إلا عندما تتأكد والدتي من أنني قد انتهيت من كتابة الواجب، ومن كون شمس أغسطس قد خف لهيبها أيضًا، فلا يكون ذلك إلا وقت العصر الذي كان يوافق خروج والدي بعد أن يتناول الغداء.

كنت أقترب من باب البيت الموارب بحرص حتى أنتهز اللحظة التي يشيح فيها بوجهه بعيدًا. هذا في المرات التي يكون فيها جالسًا على «كنبة» كانت تتصدر المدخل عندما يحدث شيء يمنعه عن الخروج إلى المقهى. عندها أغادر البيت حافي القدمين، ممسكًا «الشبشب» بيد وبالأخرى ذيل جلبابي المقلم حتى لا يعوقني عن الجري بسهولة، ولا أبطئ إلى أن أصل عند «حوض شاهين» بشرق البلد الذي هو مساحة كبيرة تزيد على فدان من الأرض البور التي تكثر بها أكوام السباخ ويتناثر بأنحاء متفرقة منها روث بهائم أهل البلد الذين كانوا يفضلون ربطها هناك، وبخاصة في الشتاء تحت دفء الشمس التي لا شيء يواريها طوال اليوم سوى شواشي النخيل وفروع الشجر عند وقت العصر.

عند الناحية القريبة للطريق الزراعي، الذي كانت تصطف البيوت على الجانب الآخر منه، كان يوجد عمود التلغراف القديم، تعلوه أسلاك مقطوعة تتدلى من عوارض خشبية قصيرة، اختفى لونها تحت براز الطيور التي كانت كثيرًا ما تقف عليه.. كان يرتفع شامخًا باتجاه الأفق فوق قضيبين عريضين متقابلين من الحديد في وسطهما فتحة صغيرة بمقدار شبر واحد.

في هذا المكان كان يروق لنا اللعب بعيدًا عن أعين الرجال الذين كانوا لا يفتأون ينهروننا ويسبون آباءنا على أتفه شيء يبدر منا، أنا وأصحابي، كنا

نحب لعب «الاستغماية» التي يجبرنا لعبها على البعد كي نختبئ فيما وراء البيوت، لكن في هذا اليوم انشغلنا بأمر عمود التلغراف هذا، كما لو أننا فوجئنا بوجوده لأول مرة حيث انجذبنا إليه أكثر من أي وقت مضى. جاءت البادرة عندما انتبهنا إلى غربان كانت تتعارك بأعلى فوق العوارض الخشبية، التي دفعنا تشابكها الصارخ على أن نقذفها بالطوب حتى نبعد لعنتها التي أخبرتنا بها جداتنا، فطارت مبتعدة نحو الأفق، بينما عيوننا كانت تتبعها في ارتفاعها، ثم عندما خفضت عيناي انتبهت لتلك الفتحة الصغيرة التي بأسفل العمود، فركعت على ركبتيّ كي أزيح التراب المتراكم حولها. أما الباقون فقد شاركوني فيما أفعل إلى أن لفتنا انتباه بعض الفتيات المنهمكات في لعب «السيجة» بالقرب منا، اللواتي كنَّ يحسبن أننا نبحث عن شيء ثمين.

في أثناء انشغالنا بالحفر لمع بذهني خاطر سأندم فيما بعد لمجرد تذكري أنه قد خطر ببالي، كان عن رهان فيما بيننا على من يقدر أن يدخل رأسه لأطول مدة ممكنة بتلك الفتحة الصغيرة. الذين كانوا معي، محمود، والسيد، وعلي، وحسين، استولت عليهم الدهشة التي ألجمت ألسنتهم، بينما أطلت نظرة قلقة ومترددة من عيونهم، ولكنهم ابتسموا ثم انحنوا طواعية بهمة عالية ليسووا التراب الذي أحاط بالعمود، تمهيدًا لما سأقوم به بعدما أظهرت تحفزي لأكون أنا البادئ.

حينئذ شعرت بزهو كطاووس وبغبطة كصياد حيث لم أتوانَ في فرد طولي على الأرض زاحفًا برأسي نحو الفتحة التي بداخلها أغمضت، بينما كنت أشم رائحة التراب اللين القريب من أنفي الكبير في بطء وحذر.

أما لحظات الغسق المشعة فأحس بها تضوي من تحت جفني المقفولين، كدوائر حمراء أخذت تتسع في حلقات صغيرة متتالية بعد أن كانت في البدء نقطة بيضاء.

كان جفناي اللذان لم يجبرني شيء على فتحهما لرؤية ما تبدو عليه الأشياء من حولي سوى صخبهم ووقع قفزهم بالقرب مني، بالإضافة إلى التماع ومضات

ملل بداخلي كادت تسلمني للاستسلام، فحاولت عندها رفع رأسي قليلاً حتى يتسنى لي الرؤية جيدًا فلم أستطع أن آرَ شيئًا غير أقدامهم المتوثبة بالقرب مني. كانت تتملكني في هذه الحظة نشوة يخالطها الفرح إلا أنه بدأ شيء من القلق الذي أخذ يتضخم بداخلي لما أحسست بالضيق كمقصلة أسلمت لها رقبتي، حتى ضاق صدري فقررت، بيني وبين نفسي، أن علي إنهاء هذا السخف الآن ودون إبطاء.. ولكني لم أتمكن من أن أنهي ما بدأته بسبب أن رأسي الذي كان على الرغم من صغره قد انحشر داخل الفتحة.
حاولت أكثر من مرة أن أخرجه فلم يتسنَ لي ذلك. وبينما في كل مرة أحاول فيها تجنب الهلع كان قد أصابني ما يشي به فشعرت كأنني قد انقطعت عن الدنيا ولا شيء غير طنين يملأ أذني وسخونة تشمل جسدي الذي أخذ يتصبب عرقًا. ولم تتبقَ سوى ثوانٍ قليلة هي التي تفصلني عن البكاء بشكل هستيري والصراخ بطلب المساعدة.
وحينما نظرت إليهم وجدتهم يبتعدون خوفًا من أن يتهم أحد منهم لو حدث لي شيء، ومثلهم أيضًا فعلت الفتيات بعد أن تركن لعبهن.
بعد ابتعادهم عني شعرت بالهلع يزداد بداخلي ولكن ما جعل الأمر أكثر سوءًا ليس ذلك، بل هو ابتعاد الشمس واقتراب الظلام، فضلا عن أنه خيل إلي بأني لم أعد أخطر على بال أحد أبدا، حتى أصحابي الذين أعطوني للتو ظهورهم كما لو كنت ملقى وحيدًا في الصحراء. ستبكي والدتي كثرًا إذا أخبرها أحد بما حدث لي، أما إذا استطاعت أن تحس بما أحسست به من هلع فيمكن لها أن تفقد الوعي لمدة طويلة.
لم تكن عندي القدرة على السخرية مما يعتريني من خيالات مستبعد حدوثها، فمن الذي سيخبرها في ذلك الوقت الهادئ من اليوم حيث الكل في بيته كالمعتاد في انتظار العشاء، أي فيما بعد المغرب بقليل بعدما يكونون قد فكوا بهائمهم وعادوا بها إلى بيوتهم؟ وحتى أصحابي لم أكن أتوقع ذلك من أحد منهم، حيث من المؤكد أنهم الآن في بيوتهم ملتزمون الصمت

بينما تفكيرهم يجمح بلسان مخيلاتهم التي تتوقع لي الكثير من النهايات المأساوية.

عندها غشيت عيني غمامة كثيفة من الدمع فلم أرَ أي شيء يمكن أن أستبين شكله حيث اختفت كل الأشياء أو تماهت مع دموعي الغزيرة. وبعد كل محاولاتي الكثيرة الفاشلة في تخليص رأسي شعرت باستسلام مقيت بكل جوارحي، وزاد على ذلك أنه قد راودني خاطر بأنني مقبل على النهاية ولا شيء سواها، حتى عيناي قد نضبت دموعهما مما جعل رؤيتي الأشياء واضحة إلى حد ما أو بقدر استطاعتي لرفع وجهي؛ حيث رأيت امرأة آتية من بعيد كانت تمشي في خطوات واسعة كما لو أنها على وشك أن تجري لنجدة أحد.

يسرق لأول مرة

صوت خافت ممدود كان ينبعث من تحت قدميه لا يلبث أن ينقطع للحظة قصيرة ثم يعود كما هو. كان قد بدأ كضحك مكتوم على خطوات مهزوزة لمهرج عجوز. وذلك في أثناء صعود عبد الرازق سليم السلم الخشبي ذا الإحدى عشرة درجة الذي يرتقي إلى الطابق الثاني والأخير.

عندما وصل إلى المنتصف اعتراه خاطر يوصيه بالتريث كي يمتلك زمام نفسه ولو لمجرد برهة قصيرة حيث يمكنه بعدها مواصلة ما عزم عليه أو أن يرجع عائدًا إلى داره، فقد كان ذهنه مشغولاً فيما إذا كان أحد موجود يكون قد سمع صوت قدميه أم لا. كان لا يعرف من أين أتى ولماذا، حيث اختلط عليه فكره وتشابكت بداخل رأسه تفاصيل لأشياء فكر بها كثيرًا من قبل، غير أن تلك اللحظة أضفت عليها غرابة مخيفة كانت توحي بعواقب وخيمة. ولكنه إذا تمالك نفسه ثم نحى عنها هواجس الخوف والقلق فسوف يخدش هذا الصوت الصمت المندس بين ظلام إحدى عشرة درجة في أثناء الصعود وإحدى عشرة درجة في أثناء النزول، الذي إذ قدر له أن يسمعه في وقت آخر غير هذا لكان قد أثار بداخله رغبة أكيدة في السخرية من نفسه، كما يحب أن يفعل أمام ابنه إبراهيم الذي يرقد في فراش المرض منذ سنتين.

كان هو قد حاول في أثناء تلك المدة، على الرغم من بؤسه وفقره ومجابهة صباحات أيامه بوجه محتفظ بعبوسه في أغلب الأحيان كانت ملامحه تتلوى حزنًا وسخطًا، أن يخلق مواقف الضحك والسخرية كي يخفف عن ابنه ضيقه وملله اللذين صار أثرهما باديًا على ملامحه السمراء الشاحبة وعوده النحيف، حيث بدا وكأنه يسبق سنوات عمره الاثنتي عشرة بكثير.

كان عبد الرازق وقتها يجعل من هيئته المزرية والمفتقرة للمهابة، فضلا عن نفسه التي كانت تميل إلى الضعف والخنوع، مثارا للسخرية، كأنهما خيطين يحرك بهما جسده مثل الدمية، هو الذي كان قد تخطى الخمسين، طويل القامة، رفيعًا، يُرى دائمًا مرتديًا جلبابًا أزرق متهرئ الأطراف ومليئًا ببقع متسخة بشدة، وينتعل حذاءً قديمًا من دون جوارب. كان أيضًا يجد في ذلك

وسيلة تبعد غلالة الحزن التي كانت تحجب سحابة الفرح والطمأنينة وراحة البال عن داره، فخلال ذلك كان يحاول بقدر استطاعته أن يخفي تصنعه وقلة حيلته حتى يستعيد ابنه فرحته العذبة، بينما كان ابنه إبراهيم كثيرًا ما يلم به حزن عندما يفطن إلى ضعفه وقلة حيلته. يكون ذلك بإحدى الحجرتين اللتين يتكون منهما داره الصغير المسقوف بجذوع النخيل وسعفه، بالإضافة إلى مساحة ضيقة يفتح عليها بابي الحجرتين، في عقب النهار بعد عودته من ماكينة المياه التي يعمل على حراستها ويتولى تنظيم نوبات بين المزارعين في بلدته. كانت تشاركه زوجته حسنية في ذلك، التي تعلم بكل ما يعتمل بداخل نفسه من كثرة ما أنصتت للوعته وملاحظتها ملامحه التي كانت كمرآة تعكس ما يعانيه عندما يطول صمته، غير أنه كثيرًا ما يخاف أن يعرف ابنه الغرض من وراء هذا الإشفاق عليه.

كان في أثناء جلوسه في مقهى «درويش» الذي أخذ يتردد عليه كثيرًا في الآونة الأخيرة برفقة صديقه عتمان عبد الودود إلى وقت متأخر من الليل، حيث يظلان موجودين بها حتى بعد انصراف روادها من أهل البلدة وعابري السبيل. حينها كان عتمان يتعجب لرغبة صديقه في ملازمة مكانه بالمقهى وشروده عما حوله، وأيضًا لنظرته الطويلة التي يصوبها نحوه كأنما يراه لأول مرة.. ولم تكن كآبته وسخطه شيئين جديدين عليه، فقد كانا صديقين منذ وقت مبكر يعود إلى فترة الشباب، مع أن عتمان كان يكبره بثلاث سنوات، طويل القامة مثله، غير أنه عريض المنكبين، ممتلئ، ملامحه غليظة، وصوته بطيء ومنخفض على الدوام. كان يمتلك دارًا من طابقين قبالة دار عبد الرازق، ويزرع أربعة قراريط بشرق الترعة الكبيرة ورثها عن أبيه، فيما كان عنده بقرة وعدد من الماعز.

كان يواظب في كل خميس على الذهاب إلى سوق البهائم من أجل السمسرة التي كانت تدر عليه نقودًا كثيرة بسبب براعته فيها، وعلى الرغم من كل ذلك فإنه كان شحيح اليد على نفسه هو وأسرته المكونة من زوجته سعدية

البدينة وثلاثة من الأبناء؛ حيث بدا ذلك على مظهرهم الرث مثلما بدا هو بجلبابه الصوف المتسخ الذي يرتديه صيف شتاء.

ومع أن عبد الرازق كان متأكدًا من عدم وجود أحد في الدار فإن قلبه ما زال يخفق بشدة تكاد تحطم ضلوعه، بينما غمر العرق جسده حتى التصق بجلبابه البالي، الذي أحس بثقل على الرغم من نحافته اللافتة ووخم إرادته وتشتت ذهنه، فقد كان يعتريه خوف من أن تكون زوجة عتمان قد عدلت عن البيات في دار أبيها هي وأبناؤها التي لا تبعد سوى أمتار قليلة.. وازداد خوفه أيضًا عندما ألم به خاطر من أن تكون قد بدلت مكان النقود التي كانت تحتفظ بها داخل خزانة الملابس كما أخبرته زوجته، ولكنه استبعد ذلك لقصر الوقت الذي مر على بيع عتمان بقرته، عندئذ تحولت مخاوفه إلى شعور يحفزه على المواصلة حتى وإن ظلت عكارة الخوف راكدة بقاع قلبه.

كانت نظراته المحدقة في الظلام تشعره بغرابة المكان كأنه لم يدخله من قبل أبدًا، وكأن رائحة الرطوبة المتغلغلة بالجدران التي ألفها تأتي من مكان بعيد لا تستطيع مخيلته تبين معالمه بسبب كثافة الظلام.. ها هو ما زال يقف في منتصف السلم لا يحرك ساكنًا، مصغيًا للسكون الذي يغشى أذنيه على الرغم من أن الليل كان في بدايته.

كان لا شيء يتردد غير صوت أنفاسه العالية لغضبه من أن يكون أحد منهم قد علم بوجوده. أولئك الذين طالما مد إليهم يده على استحياء طالبًا المعونة لعلاج ابنه الذي تركه منذ وقت قليل في حال يرثى لها، حيث يتلوى.. كان يتلوى من ألم ينهش جنبه حتى يبلله العرق وتهيم نظراته في تضرع. عند ذلك اشتدت قبضته المعروقة على الدرابزين في توعد لكل من يحاول أن يفسد عليه الأمر، بينما كانت عيناه تطلقان نظرات إلى الخلف نحو الباب المطل على الدرب الذي تنضح شقوقه عن ضوء ضئيل يخدش الظلام في خجل.

كان قد قدر تفاهة ما يتوخاه من حذر بعد أن قتل ضميره ودفنه بجوار

كلمات كانت ترن بداخله كي تذكره بالثواب والعقاب، والخير والشر. أجل، أصبح لا يخشى شيئًا.. ثم جعل يخاطب نفسه: «إن لم أفعل ذلك فسوف يموت ابني الوحيد.. الكل يعلم بمدى احتياجي إلى النقود وفي مقدمتهم عتمان صديقي الذي لم أجد في جعبته غير أشياء زائفة عن الصداقة والعشرة والجيرة والظروف الصعبة». لكل هذا أحس بنشوة البطولة كأنه مبعوث السماء الذي سوف يقتدي به المعوزون حتى يتخلصوا من الهم.

هناك شيء جديد انبعث بداخله كان يحثه على تكرار الأمر في المستقبل مرات ومرات - إذا أفلت هذه المرة - إلى أن يندم كل البخلاء والجشعين وليس عليه فيما بعد لو أتت الفضيحة..

أدار رأسه إلى الأمام عندما كف عن انشغاله بما يعتلج داخل نفسه واضعًا نصب عينيه هدفه الذي جاء من أجله.. هم بالصعود إلى أعلى ولكنه بوغت بضوء يشع بقوة من خلف الباب الموارب للطابق العلوي فتسمر في مكانه وهو يبتلع ريقه الناشف بصعوبة، بينما ازداد إفراز جسده العرق، في حين ألمت به برودة مقيتة أشعرته برعب مماثل حدث له في زمن بعيد حينما كان صغيرًا، الذي أعقبه تبول لا إرادي، ولا يتذكر منه غير رائحة البول التي كانت تأتي على أنفه كما الآن. وقبل أن يشعر بالخجل من نفسه، صعد درجات حتى رأى «لمبة صفيح» يعلوها لهب متوهج، تتلاعب فوقه خيوط دخان أسود، لا يكشف عن خيال لأحد يمكن أن يكون موجودًا.

هدأت نفسه المروَّعة واستعاد زمام نفسه ثم تشبث بالأمل في السطو على النقود من دون جلبة. هل يمكن أن يكون عتمان وزوجته البدينة قد نصبا إليه مكيدة؟ هل راودتهما الشكوك لما أثاره هو وزوجته من أسئلة تخص أمر النقود؟ لا، هو يعلم أنه توخى الحذر معه عندما كان يتحدث إليه منفردين آخر الليل في مقهى «درويش»، بل أيضًا أوصى زوجته أن تتبع ذلك مع المرأة البدينة التي هي إن لم تكن موجودة الآن في البيت، فلماذا تركت اللمبة مشتعلة؟ وأن لم يكن يعرف سابقًا لا مبالاتهما لرجع على الفور!! وأيقن بأن

هناك أمورًا تصدر عن الناس دون قصد منهم، فقد كان يهتم للظلام الذي لم يتوقع أن يكون هكذا، ثقيلا على نفسه ومربكًا لقدميه. وبدلا من رائحة البول التي أثارتها ذكرى الرعب الطفولي، كان قد تشمم رائحة الرطوبة التي امتزج بها عبق الجدران الرخو العتيق. وكلما تذكر إلحاحه على الناس في طلب المساعدة لعلاج ابنه، ازداد تصميمًا وعزمًا قويين.

من دون توقع منه تخلخل جدار السكون بنحيب حار كان يخرج من جوف امرأة؛ حيث بدأ خافتًا ثم ازداد، تصحبه أصوات لأقدام مسرعة كانت تقرع أديم الدرب، كأنها راغبة في استجلاء الأمر. بوغت وانتفض في مكانه بينما في ثوان ألمت به رغبة يشارك بها أصحاب الأقدام المسرعة، فنزل إلى أسفل بقدمين مرتجفتين وقلب يرتعش، مقتربًا من الباب بخطوات بطيئه كأنها لرجل في وسط كابوس. كان قد فكر بأن يترك البيت ويهرب في غياهب ظلمة الدروب الضيقة والملتوية، إلا أنه تراجع عندما رأى من بين الشقوق هامات باهتة وصامتة، ذات رؤوس محنية في أسف بالغ. كان لا يلبث أن يفكر في احتمال عودة المرأة البدينة إلى الدار على وقع الجلبة التي أحدثها النحيب في الدرب، فهي من المؤكد أن تكون بين الواقفين. نعم.. بالفعل قد عثر من بين الشقوق على ظلها المترهل وهو يتحرك ببطء أمام الباب وكأنه يود فتحه. وعلى ما ألم به من جزع في تلك اللحظة كان قد انتوى أن يصعد إلى الأعلى كي يأخذ النقود ثم يقفز من الناقذة أو يعتلي السطح إلى الأسطح المجاورة، حتى يصل إلى الخلاء. هكذا وبهذا فكر حيث كلما تنتهي الفكرة تعود كما هي بلا زيادة أو نقصان، ومن دون أن يبرح مكانه، مع ما يتهدده من عودة أصحاب الدار. وقبل أن ينجرف في البحث عن إجابة للسؤال الذي ألح عليه - فقد كان يود أن يعرف أين يمكن أن يكون صديقه عتمان في تلك اللحظة - جذب انتباهه بقوة صوت النحيب، فقد شعر بأنه يدعوه لمعرفة ما حدث. عندما وجد في الصدى الممزوج بهمهمة المتسائلين ألفة قديمة.. تحسس المزلاج بيدين مرتجفتين حيث كان عازمًا على الخروج، ولكنه قبل

أن يأتي بحركة باغتته أصوات صارخة تردد اسم ابنه إبراهيم مسبوقًا بآهة ممدودة كانت تناجي الأفق الصامت المظلم بلا جدوى فيما أحس بأنها ستظل إلى أمد طويل تطارده بالذنب. هل يمكن أن يكون هذا عقابًا أم مفارقة مقيتة؟ إن كان هذا أي الاثنين، فلماذا جاء مبكرًا؟ وبينما كانت أذناه تجدان في ما يحدث غرابة شديدة تختلط بهمس الخبل انحنى هو إلى أسفل مقرفصًا ثم دفن رأسه بين كفيه في استسلام لدموعه المنهمرة.

لقاء غير متوقع

جاء الأتوبيس إلى المحطة بعد أن طال انتظارها له، فشعرت بارتياح عميق وهدوء داخلي بينما تحسست الطفل الذي كانت تحمله بين ذراعيها بغبطة وحنان، مع أن مشاعر الحزن ما زالت تقبع بروحها. اقتربت من الباب في بطء وحذر الذي لا تفصلها عنه غير خطوة واسعة أجلت عبورها حتى يصعد من سبقوها. دلفت إلى الداخل واستقرت بمقعد يتخذ زاوية ركنية. كان بالداخل ضوء أصفر باهت يعكس ظلالاً هشة لبعض الركاب المستقرين في غير انتظام. لم يغرِها أي من المقاعد الأخرى الخالية بتبديل مكانها لأنها في ثوان معدودة مر عليها خاطر في إمكانية حدوث ذلك ولكنها تراجعت، ليس كسلاً ولا فتورًا، إنما تملكتها حالة من الانتشاء مرصعة بومضات حاملة لزمن قمري قديم يشوبه حزن قليل، بسبب أنها كانت تراه من خلال كوة صغيرة بمخيلتها التي تتشبث بإطارها خيوط عنكبوت عجوزة، يتخللها الغبار بعدما مضت ليال طوال أعقبها زمن من الفراق، ليال من كثرتها كونت أربعة أعوام، أصبحت لا تتذكر منها غير التي يعلوها القمر الذي كان يؤطر لقاءات العشق المختلس في شوارع كالدروب، ودروب كالمتاهات، مما يضفي صورة متماهية مع الأحلام القلقة لعيون الرقباء.

هبت عليها من النافذة التي كانت بجوارها نسمة تحمل برودة المغيب، أنعشتها وأفعمتها بروح الإحساس الحقيقي الذي كاد يرجع ويخترق اللحظات المعيشة الآن بتفاصيله الباهتة التي فيها أخذت أصابعه تداعب مفاتنها بشبق فانجذبا في عناق محموم ممزوج بالقبلات. كان قد أبعدها عنه قليلاً كي يتبادلا كلمات من الهمس، ممتلئة بدفء البراءة حيث تمحو ما كان بداخلهما من شعور بالذنب والخوف. أين هو الآن؟ وماذا يفعل؟ أيتذكرني؟ أما زال يذكر تلك اللحظات الجميلة؟ هل ارتضى أن يجرب الحب مع غيري أم أنه ما زال قلبه يقتات على ذكرى حبه لي؟

أفاقت من شرودها على أنامل الصغير وهي تداعبها. نظرت إليه فوجدت ملامحه شاحبة بينما على شفتيه ابتسامة غابت عنها مسحة الفرح كأنه يعلم

معنى الموت الذي ألم بأمه. ضمته إلى صدرها بإشفاق بينما كان قلبها حزينًا على حاله لأن الموت أبعد عنه حضن أمه منذ بضعة أيام، التي كانت على خلاف دائم مع والده حيث اضطرتها الظروف لأن تعيش لاجئة في بيت أبيها. في تلك الأثناء كثر القول والتأويل، حتى هي التي تعتبر صديقتها منذ الصغر كانت لا تعرف شيئًا عن أمر زواجها إلا بعد عودتها من سفرها الذي دام أكثر من ثلاث سنوات بالخارج. كثيرًا ما كان يأخذها التفكير إلى دائرة الإجهاد لحد الملل فعندئذ قررت أن تكف عنه مكتفية بذكرى أيام حلوة عاشاها معًا.

في صباح اليوم كان عليها أن تذهب إلى أم صديقتها بعد أن اتصلت بها وطلبت منها المجيء لمقابلتها. عندما وصلت إلى هناك أخبرتها بأن أباه يريد رؤيته قبل أن يسافر. فهمت على الفور أنها تريد منها الذهاب به إليه. لم يكن بداخلها أي تردد أو تهيب حيث لم يشغلها بتلك المقابلة غير هالات الحزن التي كانت تكسو ملامح العجوز ذي الملابس السوداء، وأيضًا الحسرة التي امتصت روحها. اختلجت نظراتها عندما عرفت في ملامحه أنه هو وليس أحدًا غيره، بينما تجمعت أسئلة كثيرة على طرف لسانها، فأثقلته حيث جعلته عاجزًا عن البوح.

فجأة ارتعدت مفاصلها كمن أصيب بحمى مميتة أو كأنها تحمل صخرة بين يديها وليس طفلا. كان قد أخافها عجزها عن النطق ومن إمكانية استطالة وقته حتى لو دقائق، فتصبب وجهها عرقًا ودوت دقات قلبها بأذنيها.. في حين ارتابت من كل شيء بعد أن رأت في عينيه النسيان حيث أصبح نور القمر الذي كان يؤطر حبهما كنور خافت تذوى شعلته بجوف زجاج مصباح ملطخ بالسواد، والليل ثوب أسود يكفن ميتًا، والشوارع والدروب والبيوت ما هي إلا ديكور لمسرحية بطلها العبث. أما هو فكان مشغول بالنظر إلى ابنه قبل أن يمد يديه كي يحتضنه، الذي تراجع خطوتين بظهره ثم أغلق الباب.

انفطر قلبه وابتلت أهدابه حزنًا على بقرته التي افترشت الأرض ولم تعد تستطيع أن تنصب طولها.. فقد كانت تئن أنينًا متواصلاً يختل له ميزان عقله وزمام نفسه. مهموم بقدمين حافيتين وبجسد لا شيء يقيه من البرد غير جلباب كالح متهرئ، وبرأس أصبح عاريًا منفوش الشعر بعد أن انفكت عمامته واستقرت فوق منكبيه. جعل يجوس دروب البلدة الضيقة والمظلمة بقلب ميت ليطارد عواء الذئاب ونقيق الضفادع وخشخشة الحشائش اليابسة.. بينما هو في الوقت ذاته مطارد من ذكرى زوجته وصوت المؤذن.

كانت تتصاعد نبرات صوته الواهن إلى السماء في يأس ورجاء «أبحث عن الدواء في رائحة الظلام كما قالوا لي».. وما دام عرف هو من قبل أن للظلام مذاقًا قد خبره في النسيم الذي طالما كان يخطر بذهنه كي يبعث ذكريات سعادته من جديد، في ساعة قربه من الساقية التي كانت تديرها بقرته، فأيضًا وبالتأكيد سيكون له رائحة التي ربما لم يكن بمقدوره أن يطلع عليها بحواسه، وإنما بروحه التي كانت تفترش الظلام بساطًا للونس، فيما أحيانًا تخرجه من انطوائه ليذهب إلى داره ويلقي نظرة على بقرته ثم يغادرها مرة أخرى حيث الظلام الذي إن لم يجده كان يفتش عنه في ثنايا النهار، أما إذا ضاق منه فيبحث عنه بداخل نفسه.

استبد به التعب فاستلقى على ظهره مفترشًا العشب في حين يرمق الأفق بجفون مرتخية إلى أن غلبه النوم، فجاءه هاتف في رداء الحلم الذي أمره بأن يكف عن ملازمة الخلاء ويعود إلى داره في الحال.

دخل الدار ملهوفا حيث وجد عواطف مشمرة عن ساعديها تحاول اقتلاع وتد البقرة من الأرض. كانت أرملة في الأربعين من عمرها، ترتدي ثوبًا أسود كان ضيقًا يكشف عن جسدها الموفور بالأنوثة وقصيرًا إلى حد ما، وتعصب رأسها بمنديل أزرق. وجهها الجميل كان لا يثير الإعجاب في قلوب الرجال على الرغم من أنه ما زال مبقيًا على نضارته، بل كان يثير الامتعاض. كان ذلك بسبب النحس المشبوك بذيل ثوبها وسمعتها الشائنة.

اقتلعت الوتد ثم أعطته إياه بعدما نزعت عنه الحبل، التي أوصته بغرسه في تراب الموتى عند منتصف الليل. نهض من نومه على العشب مرتجف الأوصال، غائب العقل، متيبس المفاصل، يبلل العرق جبهته.. عند منتصف الليل أدرك مقابر أجداده بعد أن أخذ عقله يجوب في ممرات ذاكرته المتشابكة. حاصره الخوف والقلق إلى درجة الاحتناق. كانت مخيلته تقتل بداخله كل ما يبعث على الطمأنينة التي بثت خواطر سوداء تتدلى منها مشانق تتأرجح بهياكل العفاريت. دقات قلبه كان يتردد صداها بأذنيه بينما زكمت أنفه رائحة شاذة، أحس بأنه شمها منذ زمن بعيد.

على ضوء النجوم الشاحب بدت القبور المتصدعة كأطلال حرب دارت بين الملائكة والشياطين. ابتلع ريقه فتذوق مرارة اقشعر لها جسمه الذي اعتراه الوهن. انحشر طنين الصداع بداخل أذنيه ففر العواء والنباح وحفيف الخوف. انحنى بصعوبة فوق الوتد ثم أخذ يدق بقوة مرتعشة حتى كلت يداه. كان صوت الدق يعود برفقة الصدى كنواح مكتوم. خاف أن يموت الأمل مشنوقًا بحبل الرجاء.

بعد أن انتهى انتصب كي يهم بمغادرة مكانه ولكنه لم يستطع حيث كان ثمة شيء يمسك بذيل جلبابه.. عندئذ نظر لأسفل عند موضع قدميه فلم يرَ غير الظلام.. الذي أطلق صرخات عالية ارتطمت بالسكون وعلى ضوء مخيلته تراءت له عيون زوجته ينساب منها دمع غزير. امتلأت عيناه المصوبتان لأعلى بدموع الهلع. كانت النجوم قد اندثرت وتلاشت زرقتها المضيئة وتحركت البيوت إلى الوراء مفسحة لظلام الخلاء الذي تقدم برائحة شاذة علم كنهها حين غاب عنه اسمها.

خيم الصمت على الموجودات وانعقد لسانه إلى أن صارت صرخاته كنعيق الغراب.. وأخيرًا فارقت الروح الجسد.. أجل مات ولم يكن يعلم أن ذيل جلبابه انغرس في الأرض تحت سن الوتد.

ساق مبتورة

من وسط المقابر المحاطة بسور عالٍ قديم، أطلقت الكلاب المتصارعة عقيرتها بالنباح في زمجرة مجنونة، فانهار جدار السكون الذي أقامه أغسطس بلهيبه الخانق حيث فارقت السكينة النفوس الهاجعة تحت ظلال القيلولة وارتدت بعض الوجوه أقنعة القلق ولهجت مستغفرة. في ذلك الوقت كان الخفير عبد التواب الذي تأخر عن صلاة الظهر في جماعة يسرع من ركوعه وسجوده بداخل جامع الشيخ سالم.

من بعيد، حيث البيوت، صوبت الأعين نظراتها نحو الباب الكبير المفتوح في الغالب بشكل موارب على ساحة المقابر كأنها تراه لأول مرة.. في حين تخطت ربات البيوت العتبات في وجل ورجفة كي يطمئنن على الأطفال الذين كانوا قد كفوا عن مرحهم تحت شجرة الجميز ذات الفروع المتشابكة حيث صاروا ملتصقين بجدار الجامع.. وجفلت الماعز والحمير مهرولة حيث تركت خلفها زوبعة ثقيلة من الغبار التي كادت تخفي المدق الذي كان يفضي إلى الخلاء. خرج الخفير عبد التواب من الجامع بعدما ختم صلاته في سرعة محمومة متجهًا إلى المقابر، الذي كانت أذناه تستغيثان من اضطراب مكتوم تحت وطأة النباح، وشغف ممزوج بالقلق يملأ قلبه، فيما أخذ لسانه يطلق سيلاً من الشتائم تصيب الكلاب وأصحابها. عندما وقف أمام الباب سوى من وضع بندقيته المعلقة على كتفه اليسرى ثم هدأ من أنفاسه المرتفعة المتلاحقة، قبل أن يزيح الباب بجسده النحيف ليفتحه قليلاً.

كان الغبار يتصاعد كثيفًا من وسط المقابر في دفقات عبثية حول الكلاب التي أقامت صراعها بين ذراته الغامقة، فبدت كأشباح مختنقة. أمسك بطرف جلبابه وخلع نعليه حتى لا يدنس تراب الموتى. انقبضت ملامح وجهه بسبب وقع خطواته على التراب الساخن. وقبل أن يسرع من خطواته أطلق لسانه بصوت مرتفع: «جِر.. جر.. جر».. تفرقت الكلاب مختفية في تشابك الممرات التي تفصل بين القبور.. اقترب من المكان الذي نصبت فيه الكلاب عراكها بعد أن بدأت تتلاشى زوبعة الغبار. حينما وصل مال برأسه فارتطمت نظرته

بجدار الذهول لما رأى ساقًا مبتورة كانت تتوارى معالم أنوثتها تحت تراب يعلو بياضها العاري، وفوق كعبها الذي تلونه الحناء كان يلتف خلخال فضي تتدلى منه شراشيب مزركشة، وتوجد خيوط دموية رفيعة متجلطة ارتسمت كالوشم حول الأصابع.

كتم في جوفه صرخة تمزقت لها أحشاء روحه بينما انداح الألم في أوصاله، وأودت ذهنه أفكار منسلخة من جدواها تتشبث بالوهم والذهول. تراجع بأطراف مرتجفة حين كانت تجوب عيناه الجاحظتان في الممرات بسرعة خاطفة التي ترتد خائبة لا تعثر على شيء إلى أن اصطدمت بالباب. تضائل صوت النباح عندما تفرقت الكلاب بينما كان الخفير عبد التواب قد انزوى على نفسه بركن داخل الجامع موليًا عينيه ناحية الباب الخارجي. جلبابه الداكن ينضح بالعرق وأنفاسه اللاهثة كانت تطلق زفيرها الملتهب وكان قلبه يقفز بقوة تحت ضلوعه من لوعة الذهول. تشاءم لرؤيته غرابًا يعتلي فرعًا يابسًا من شجرة الجميز كان يجلجل بنعيق صاخب ارتعدت له العصافير ثم تفرقت.

جعل يراقب انفعلات خياله المحتدم بعين الماضي لعله يعرف سبب ما رآه حيث ألقى على نفسه أسئلة كانت تتجلى ببساطتها في وضوحها بينما إجاباتها كانت لا تشفي حيرته واضطرابه. كان يقينه في تلك اللحظة على حافة الشك الذي لم يتوانَ في مراقبة ذلته التي خرجت من دائرة اللحظة، فتراجعت خطوات كي ترقب أحداثًا اندثرت تحت ركام الأيام. ما أكثر المرات التي بدت أما مخيلته صورة المرأة الهاربة حيث بعد هروبها التصقت بمسوحها بصقات النميمة، غير أنه على الرغم من مضى أيام كثيرة لم تقع عيناه عليها فإنه بدت له صورتها واضحة بقوة جعلت قشعريرة تسري بجسده، يحيطها إطار من العار كفيل بأن يمحق البراءة عن ملامحها. ما الصلة التي كانت تربطه بتلك المرأة؟

انكفأ ذهنه بجوف نفسه كي يبحث عن وقدة الخوف التي كانت تعوق

إدراكه في حين تصبغ انطباعاته بلون الحزن. أحس بإنهاك قواه وتراخي أعصابه تحت سطوة الخمول بينما كان عقله ما زال يفكر بتوجس. كان فيما مضى وقت الأصيل كثيرًا ما يراها تمشي ببطء تحت ظلال الأشجار على الطريق القبلي، بقامة طويلة مفرودة، وبثياب بسيطة كانت تضفي على جسدها أنوثة رائعة، في مقدورها أن تجذب قلوب كثير من الرجال الذين كان هو أولهم، ويتذكر أن لعينيها بريقًا تجفل منه جرأة المتطفلين، ولها بشرة كلون السحاب الذي تدور حوله شمس الصباح. هي التي عندما مضى على غيابها أيام ليست قليلة تتخللها مشاغل وهموم الحياة كان قد اختبأ حبه لها في أعماق نفسه. ها قد عادت إليه ذكراها متشحة بدلالات الجريمة والعار عقب دقات قلبه المضمخة بشذى أحلام وردية لليل قديم؛ فقد كان اليوم الذي يمر يمثل بالنسبة له جزءًا صغيرًا من ماضيه قد يحمل ذكرى مؤثرة تدوم طويلاً، مع أن غالبًا ما تتوالى من دون حدث مهم ولكنها تكون انطباعات قوية بداخله لكثير من الموجودات.

كان حبه لها كلؤلؤة ثمينة يخاف أن يطلع أحد عليها.. وكانت أحلامه كغطاء ثقيل يقيه من برودة الحرمان وتنسيه عجزه المنطوي بين فخذيه.. ساعتئذ يقبلها ويلمس برقة خبايا جسدها المثير إلى أن يقترب من إفراغ نشوته العارمة فيطغى الواقع بسؤال كان يذكره بأن عليه فعل شيء؛ حيث في البداية كان لا يدري ما هو حتى ترك قدميه يخطوان بثبات في ضوء إحساس باطني كان يومض بين لحظة وأخرى بنور يكشف المخفي، ثم انتابه شعور بأنه واقف على أعتاب معرفة سر كبير. نهض بصعوبة قاصدًا باب الجامع الذي تخطاه إلى الخلاء. كانت الشمس قد أطلقت زفيرًا ساخنًا لفح وجهه مما جعله ينجذب إلى ظلال شجرة الجميز التي كان الغراب ما زال فوق الفرع اليابس بها. تعلق تفكيره بين البوح والكتمان حتى أيقن بعدم القدرة على الاختيار. هو الذي إن ظل ساكنًا فسيكون قد اختبأ وراء كتمان لا يعلم عواقبه ولا تقبله قوانين مهنته كخفير نظامي.

اشتدت حيرته التي زادت حدتها عندما رجعت أصداء النباح متجاوبة مع صخب المتسائلات من النساء الواقفات أمام البيوت. لقد رأته النساء في أثناء دخوله ساحة المقابر حيث إذا علمت إحداهن بما يعلمه هو سوف يعاقب على تأخره، وربما تدور الشكوك حوله فيكون أول المتهمين. كان قد تملكه الخوف لما تخيل نفسه وهو واقف بين يدى المسئولين الذين سيلقون عليه أسئلة كثيرة، ولا يترددون في سبه إذا تأخر في الرد عليهم.. أما الشهود فسوف ينظرون ويبتسمون من وراء ظهره ساخرين من كلماته المرتبكة.

عندما أفاق لنفسه تحرك بعزم نحو ساحة المقابر ليخفي الساق المبتورة قبل أن يراها أحد غيره.

علاقة

ها هي منذ ثلاثة أيام كانت قد فرضت على نفسها الوحدة داخل غرفة بلا نافذة وبلا ذكرى واحدة يمكن أن تنسيها ما هي فيه وترتحل بها إلى دنيا الطفولة التي ما عادت تذكر منها شيئًا بعدما ذهبت إلى بعيد متشظية في أقبية خمسة وثلاثين عامًا من حياتها.

كانت تلك الغرفة لأبيها الذي قبل وفاته كان يوصي بغلقها خوفًا على أشياء صباه من الضياع؛ حيث ظل على هذا الحال زمنًا طويلاً إلى أن اخترق الإهمال روحه وأصبح ينظر إلى هذه الأشياء بازدراء وفتور.

بعد وفاته بقليل أخليت الغرفة إلا من سرير صغير ومرآة كبيرة ذات إطار فضي. كانت لا تفعل شيئًا غير أن تتحسس بيدها مكان الصفعة التي وجهها إليها وهي عارية في الشارع. ومع أنها كانت قد توحدت مع المرآة من كثرة مداومة النظر إليها، فإنها أصبحت لا تبالي بأنامل الحيرة التي تراها تطل من سواد عينيها الواسعتين، أنامل تشعر بها كحد السكين، ولكن إرادتها جعلت تزيد من سمك مشاعرها إلى أن صار رد فعلها بطيئًا مثل قدم فيل.

لماذا فعل ذلك وسط الشارع أمام العيون التي خرجت على صوت صرختي؟

تحت شمس الظهيرة التي كانت تقتل ظلال الأسطح في حين تخلق ظلالاً أخرى تحت شرفات البيوت وحول العيون الغائرة. كانت ترى على صفحة المرآة المصقولة طبقة زرقاء فوق خدها الأيسر التي في شرودها الطويل في أثناء اليقظة يخيل إليها أنها قد غطت وجهها كله، وأيضًا في كابوس أخذ يتكرر كثيرًا كانت تراها تزحف لتغطي جسدها كله، حتى جعلها الخوف من الكابوس تنام متدثرة بغطاء ثقيل على الرغم من الجو الحار والرطوبة العالية التي تتسلق جدران الغرفة.

ربما أصبحت الآن كارهة له، غير أن الأوقات الجميلة التي قضتها برفقته كانت تحاصر وجدانها.. ففي غرفة وحيدة كان يقطن بها كم أحبت أن تجلس معه بالقرب من مكتبه المليء بالكتب والأوراق ليحدثها عن أفكاره وطموحاته. كان كثيرًا ما يحاول أن يغلف بالصدق كلماته ولمساته بعد

لقائهما في الفراش، ولكنه يفشل ثم تطارده خواطر مقلقة. كانت ومضات مخيلتها تحفزها لاستكمال تفاصيل لم تحدث قط في لقاءات الليل التي جمعت بينهما.

الساعة المثبتة بالحائط المقابل لنظراتها كانت قد تجاوزت السادسة صباحًا، التي كانت تراها بصعوبة من خلال الضوء الضعيف الذي قام بإشعاله تاركًا إياها تتململ في الفراش بقميص نومها الوردي بينما كان الأرق يثقل من حركتها ويدوس على عنق رغبتها في النهوض.. عندها تمنت أن تظل مسترخية في نومها إلى الأبد، ولكن كان عليها أن تغادر الغرفة بمعونته قبل أن يزدحم الشارع العمومي بالمارة والباعة الجائلين. أما هو فلم تطاوعه نفسه ولو مرة واحدة كي يقول لها: «يجب أن ترحلي فورًا وبسرعة» - على الرغم من خوفه الشديد من أن يراهما أحد فيبلغ صاحب البيت الذي لن يتأخر عن طرده وفضحه دقيقة واحدة - خوفًا من أن يشعرها بالحرج، بينما في المرات الكثيرة التي تبدي فيها تكاسلها، وبخاصة تلك التي تعبر عن رغبتها في مواصلة النوم بإيماءات اللامبالاة القادرة على طرح كل شيء يفترض أن تقوم به بركن عفن، كان هو يفتعل ضجة بجوارها تتخذ في أثنائها ملامحه سيماء الجد والخشونة، مع أنه في الوقت ذاته كان يشفق عليها عندما يراها تجاهد في النهوض ويشعر بالندم يكتنف نفسه وروحه. وبعد انتهاء لقائهما كان الازدراء ينسج حولهما إطارًا محكمًا يشعران به كمادة لزجة يزيد من وطأتها وجودهما معًا وأنفاسهما المجهدة ذات الصوت المرتفع. كان الازدراء يصيب كل منهما ثم ينعكس من خلال أحدهما على الآخر الذي ينصب أخيرًا على الخوف من عيون الغرباء.

قبل خروجهما من الغرفة كان يتحرك بقلب مرتجف ناحية الباب الخارجي الذي يطل على الشارع كي يتأكد من عدم وجود أحد تملأ رأسه فراغ نافذة أو ضلفة باب موارب. كانت تريد أن تنفصل عنه حيث رأت من الأفضل أن يكون ذلك في أسرع وقت ممكن، بعدما وجدت نفسها تتلقى كل ما يبدر

منه بنفور شديد، فقد رفضت مشاعرها وعاطفتها ذلك المنطق الذي كان يجعل منه مقياسًا لتوافه الأشياء والأحداث اليومية التي تقع بتلقائية، فضلاً عن أفكاره المغرقة في المثالية. وبينما كانت قد رأت وجهه مثل مرآة تعكس مدى الحزن القابع بداخله كان لسانه قد صمت عن إنشادها كلمات الحب الملتهبة والتغزل في قوامها وعينيها كما كان يفعل. أخذت تفكر وتخطط حتى ازداد غرمها على ذلك بعدما أخبرها بنيته في الحصول على إجازة لمدة أسبوع من المجلة. كانت قد استغلت غيابه عن المجلة بأن أقامت علاقة مع رئيس التحرير؛ حيث في أثناء اللقاءات التي كانت تحرسها اللمبة الحمراء. جعلت تدس له وتؤلب عليه.

كان بعد عودته قد أحس بكل شيء من خلال الأحاديث العادية مع زملائه التي غالبا ما تتخذ سلوك بعضهم والتغيرات الطارئة حالة للتندر والسخرية. في بادئ الأمر شعر للحظات كانت تأتي متباعدة بتحرر كان يدعوه لإطلاق ضحكات عالية وطويلة في أوقات غالبًا لا تسمح بذلك، غير أنه سيطر عليه إحساس دائم بالهزيمة والمهانة، إلى أن أصبح شخصًا يشفق عليه الجميع وخصوصًا زملاءه الذين تبدل إشفاقهم عليه مع الوقت إلى كراهية مستترة، فقد كان سلوكه يذكرهم بضعفهم المتواري وراء الملبس الأنيق والابتسامات المصطنعة، الذين أجبرهم ذلك أخيرًا على تجنبه قدر ما استطاعوا.

ها هو يريحهم ويختار الوحدة التي لا يعبأ فيها بمرور الوقت إلا إذا غلبه الجوع أو النعاس. حينها كانت أسئلة كثيرة ترد على ذهنه حتى تلح عليه كي يجد لها إجابة، في حين كانت أيضًا ترد دون أن تترك صدى، بينما تتحول إلى صور تجترها ذاكرته المجروحة. كان هناك فاصل طويل ومستقيم لا ظل له، أسود، يأخذه إلى مكان بعيد كي يطارد حشرة كانت خارجة للتو من شريان مذبوح بعنق امرأة عجوز، تزين وجهها الأصباغ. عندما تخرج الحشرة كانت لا تجد غير صحراء قاحلة، التي بعد أن يمضي الوقت وهي لا تزال تتمسح بالرمال الساخنة لتنظف نفسها من دماء المرأة العالقة بها إلى أن تصعد

بأعلى الجبل وتنتقي مكانًا أملس منزوٍ يحميها من الرياح الصاخبة. لحظات قصيرة تستقر فيها تلك الصورة بعد حركتها غير المتوقعة ثم يستأنف الفاصل الأسود الظهور مرة أخرى. هنا كان يقشعر بدنه خوفًا من صورة جديدة قد تأتي قاتمة حتى يطبق على فكيه بقوة تشعره بألم ينساب في حلقه مع طعم مر كالصبار.

بالفعل تبدلت الصورة بأخرى جديدة؛ كان يعتلي فيها الجبل على ظهر الحشرة التي تظل تقاوم بينما تدوي من حولها الرياح بصوت كأنه استغاثة امرأة عجوز قبل أن تذبح. تحرك هو من مكانه مسرعًا ليلج بقدميه العاريتين في الرمال الساخنة، متحديًا بوجهه الذابل وعينيه المرهقتين صفعات الرياح. كان قبل أن يهم بالتحرك قد رأى وهو جالس في مكانه كفًا عظمية حيث أمسك بها مسرعًا صوب المرأة التي كانت ملقاة على بعد أميال كثيرة. كان لا يعير بعد المسافة أي اهتمام، بل كان يخشى أن تتفتت الكف بكفه قبل أن يهوي بها على وجه المرأة والرمال الساخنة تحت قدميه.

بعد ذلك جاء الصمت كغريب لم يعتده من قبل كأنه قتل الصمت الذي اعتادت أذناه الإحساس به. على أثر ذلك صمتت الرياح بعد أن هدمت الجبل وبعثرت كل ذرات الرمال فتغير الجو حيث لفحت جسده المعروق نسمة باردة أنعشت روحه وغردت لها عصافير كانت تعتلي غصنًا مياسًا لأوراقه اليانعة الخصرة حفيف مسموع. أخذ يلتفت خلفه باحثًا عن شيء لا يتذكر اسمه مما جعله ذلك يشعر بالغم والقلق إلى أن استقرت عيناه على شجرة كثيفة الأوراق هجرتها العصافير.

كان قد استسلم لنظرة طويلة التي تلاها تلاشي كل ما يدل على بعد المسافة بينه وبين الشجرة، المسافة التي تلونت بلون أخضر داكن وتلاحمت بها الأشياء مكونة بقعة كبيرة. بعد أن رجع إلى يقظته المعتادة وجد نفسه جالسًا داخل المقهى الذي لا يتذكر أنه أتى إليه من قبل، غير أنه انتبه للفكرة الطارئة التي وجدها كنبوءة صادقة جعل يترجمها إلى كلمات رددها كثيرًا في نفسه:

«علي أن أنتقم لكرامتي المهدرة»، ثم تلت ذلك كلمات كانت تخرج مبهمة حتى سكت عن التفوه مفسحًا للصمت الثقيل.

شبه متمرد

كانت تداهمه تلك الذكرى بشكل تلقائي بحيث لا يجد فيها غرابة أو مللاً.. كان خلالها يرى شمس التاسعة صباحًا قد غمرت الأرض اللينة دائمًا بنورها الدافئ داخل حارة قديمة، التي حينما جاءها في المرة الأولى كانت ترافقه زوجته المتوفاة منذ ثلاثة أعوام، تتشابك أصابعه مع أصابعها الناعمة البيضاء بينما يده الأخرى تتحسس بسعادة خطاب التعيين وقسيمة الزواج المطويين في جيب بنطاله.

كانت تسبقهما إلى آخر الحارة عربة «كارو» تحمل المتاع يجرها حمار عجوز، في حين كانا - هو وهي - يتطلعان بفرح إلى أعلى، حيث النساء المطلات من الشبابيك والشرفات، وكانت تملأ آذانهما صيحات الأطفال. غالبا ما يكون ذلك كالمعتاد باكر كل صباح في أثناء خروجه من البيت القديم الذي يسكن بطابقه الثاني، وهو ذاهب إلى المصلحة التي يعمل بها، متخذًا طريقه المنحدر من الحارة الضيقة التي تستقر بأسفل جدرانها الرطوبة ونشع البول، إلى الشارع العمومي الذي تغشاه دائمًا الحركة والضوضاء ليل نهار؛ حيث محطة الأتوبيس. كان لا يحس بشيء غير ثقل قدميه المختفيتين في حذاء تالف إلى درجة مزرية، رباطه مفكوك، تغطي مقدمته طبقة يابسة من الطين، وكان في أثناء سيره كسلحفاء لا يتبين ما يكون عالقًا من أوساخ، ولكن إذا انتبه لذلك يكون قد أخذ وقتًا طويلاً حتى يتسنى له تخليص نفسه.. هو الذي كان يراه الناس في أغلب الأوقات مرتديًا سترة رمادية خفيفة وبنطالاً أسود متجعدًا يلتصق به الغبار، أما في الشتاء فكان لا يضيف إلى هيئته شيئًا غير «كوفية» يلفها حول عنقه النحيل باستهتار، بينما يدس يديه مضمومتين في جيبي سترته. وفي أوقات كثيرة يحب أن يميل برأسه إلى الوراء قليلاً كي تستقر عيناه على أعالي البيوت التي تتراجع خلف ظهره مع كل خطوة يخطوها، وأحيانًا يسيطر عليه باعث ملح بأن يضيق جفنيه فيرى عبر أهدابه الطويلة تباعد الأشياء عنه وتضاؤلها حيث كان يستهويه ذلك لحد الابتسام والانتشاء حتى ينجلي ذهنه ويبدأ في نشاط محموم، ربما لا يزيد على خيالات تتسابق

تفاصيلها المتشظية في متاهات مخيلته المشبعة بالمخدر أو ربما ينطوي على حقيقة.. عندئذ يظل مستسلمًا للحظات قليلة للنور القوي المنبعث من النافذة الكبيرة حين تأخذ مخيلته في التطلع لما هو كائن وراء ظهره بعد أن تلاشي الظلام البائت الذي كان يكتنف الحجرة التي بها مكاتب زملائه الموظفين، وأيضًا مستسلمًا للهواء الذي يداعب شعر رأسه الخفيف، غير أنه يولي ظهره للنافذة ثم يتوجه ناحية مكتبه على الجانب الأيسر كي يجلس إليه، فقد كان يتململ إلى أن يتخذ وضعًا مريحًا، وتفتر عن شفتيه الرقيقتين ابتسامة واسعة، وتغمره سعادة بمذاق الطمأنينة التي إذا زالت كان يبقى أثرها عالقًا بذهنه الذي يجترها في أوقات الوحدة بين جدران حجرته، محاطًا بخيوط الدخان الأزرق.

فتح أحد الأدراج متناولاً نظارته الطبية التي من خلالها جعل يرسل نظرة طويلة وثابتة ناحية المكتب المقابل حتى تلاشت المسافة الفاصلة بعد أن تكونت أمام عينيه دوائر بيضاء بدأت صغيرة ثم أخذت تتسع وتتسع وتتسع مبدية له في وضوح هيئة إلهام زميلته. كانت قد بدلت ابتسامتها العفوية بأخرى محرضة، وأظهرت ساقيها العاريتين إلى ما فوق الركبة من تحت المكتب، اللتين كانتا يزيدهما فتنة جورب شفاف يضغطهما بإتقان.

في حين يتسلقهما بحدقتيه الصغيرتين في هدوء لذيذ ينفث شبقًا ويتحديان بريق الجورب بفعل النور المنعكس عليه ثم يكفان عند رؤيتهما «الميني جيب» ذات اللون الأسود. ما يحيره أن عينيها الواسعتين أصبحتا تقابلان عينيه وعيون الآخرين بقبول وجرأة. كان قد لمس هذ التغير بنفس كارهة وقلب غيور، حيث تمنى أن يرجع الزمن ليراها تتحرك في ثياب متواضعة، وبخطوات وقورة، وابتسامة يربكها الخجل. جاءت بداية ذلك عندما بدأت تتكرر زيارات المدير بحجة تفقد الأحوال، الذي أخذ يمهد إلى ذلك بكثير من الأفعال التي كانت بدورها مكشوفة للكل بغرض أن يبادلها الكلام حتى توطدت العلاقة بينهما، التي جعلها المال أكثر حميمية.

كان جميع من بالحجرة يراقبونهما بنفوس ساخطة ورافضة. هنا وجد أن نفوسهم تشاركه فيما يعتلج بداخله فلم يبذل أي جهد كي يجعلهم متضامنين ومتحفزين، إلا أنه بكلماته المشحونة بالانفعال بأنهم يقفون على حافة الهاوية، فأخذوا يتسلحون بالمكاشفة والتمرد إلى أن ترددت فيما بينهم كثيراً كلمات «الإضراب والاعتصام».

كان قبل خروجه من الحارة ينحرف إلى اليسار حتى يلقي نظرة سريعة على عناوين الصحف، غير أنه في هذه المرة من ذلك اليوم طالت نظرته، وبدا أثر المفاجأة واضحًا على ملامحه بعدما وجد صورته تتصدر أغلب الصفحات الأولى للصحف، حيث كانت مرفقة تحت «مانشتات» تعلن أن اليوم هو الأول من أيام الاعتصام.

بعدما زالت عنه المفاجأة استطاع أن يتراجع بقدميه خطوتين متعثرًا في مشاعر المقت، وعلم أن الأمر كله لا ينطوي على شيء غير خديعته، عندما جعلوا منه قائدًا لهم في مثل هذا اليوم بالذات. في ذلك الوقت لم يكن قادرًا على ترتيب تفاصيل ذاكرته كي يستنتج شيئًا متوقعًا، حتى بعد أن أرهف حواسه فلم يجد غير خواطر مفككة كانت تجول أما عينيه فقط وليس بذهنه؛ فقد رأى نفسه يقف ذاهلاً وسط حشد من الغرباء الذين تصدر عنهم هتافات مدوية ثم تأتي أصابع حديدية لتقبض عليه هو دون غيره.. ولم يمضِ غير وقت قصير حتى كان معلقًا من يديه بحجرة المكتب حيث المدير الذي يقف بداخلها على بعد مسافة قصيرة منه بينما كانت تفتر عن شفتيه الغليظتين ابتسامة ساخرة. أما هي فقد سبقت دخولها إلى الحجرة ضحكة ماجنة حتى بدت في زينتها الكاملة وهي واقفة خلف المدير. اقتربت منه لتلبسه نظارته الطبية الملقاة، التي من خلالها رجاها بنظرة منكسرة كي تنقذه من المأزق الذي وقع فيه، ولكنه وجدها لا تبالي. وفي أثناء ما يشعر به من مرارة وخجل كان يحاول أن يذكرها بالموعد الذي اتفقا عليه بالأمس، وبكلامها الرقيق له، فلم يستطع ذلك لأنهم كانوا قد انتزعوا لسانه.. عندها

وجد دموعه تتساقط بغزارة على البلاط إلى أن أغرقت قدميهما. وحينما انشغل بمراقبة أعقاب السجائر الطافية ألمت به رجفة البلل قبل أن تلامس دموعه قدميه وشعر بامتلاء مثانته. بعد أن انتبه إلى نفسه وجد إحدى قدميه غائصة في حفرة يغمرها ماء عكر عندما كان يستعد للصعود. أفلتت يده القائم الحديدي لباب الأتوبيس متراجعًا، بينما كانت عيناه تتلمسان طريق العودة إلى البيت.

استهزاء

كنت أقف منتظرًا حتى ينتهي الأسطى رشاد من إصلاح حقيبة السفر الخاصة بي. استدرت بقامتي الطويلة موليًا ظهري للدكان الصغير ثم تقدمت في خطوات وئيدة على الرصيف، مبتعدًا في هدوء، فقد خشيت من بادرة تحدث فينشب بيني وبينه حوار طويل وممل كالمرة السابقة التي قصدته فيها من أجل رتق حذائي.. وفي الوقت نفسه أيضًا كنت في عجلة من أمري فأردت أن لا ينشغل بالكلام معي فيؤخرني عن أشياء لا بُدَّ من قضائها قبل سفري.

بابتعادي رق صوت التكات المنبعثة من ماكينة التصليح التي صارت تشبه إيقاعًا متماسكًا ومتناغمًا سمعته من قبل، كما خفت حدة الغم الذي لازمني منذ استيقاظي في السابعة صباحًا. في أثناء ذلك جُلت بعيني في أنحاء متفرقة من الشارع الكبير الخالي إلا من بعض المارة حيث كانت تقع نظراتي على الأشياء بلا اكتراث، غير أنه اجتاحتني موجة عاتية من الرضا وفراغ البال جعلني أشعر بمدى أناقة هندامي الذي كنت لا أملك غيره.

بعد دقائق قليلة عدت ناحية الدكان بنفس الخطوات بعد أن بدرت من الأسطى التفاتات كأنه يبحث عني ليخبرني بانتهائه.. حينها رأيت من الأفضل ألا أسأله - هل انتهيت بالفعل؟ - حتى يعلن هو ذلك بصوته الجهير. انشغلت بالنظر فيما حولي حتى جذب اهتمامي قدوم امرأة آتية من بعيد كانت تبدو في الثلاثين، على الجانب الآخر. كانت متشحة بالسواد حيث ترتدي جلبابًا أسود كان كلما اقتربت أكثر ظهر ذيله المعفر بالتراب، ملتحفة الرأس بشال كان ينسدل فوق كتفيها، باقترابها من الدكان تجلت ملامحها بوضوح أكد لي مدى الصلة التي تربطها بالطفل الذي تحمله بين ذراعيها. كانت متوسطة الطول، جسمها ممتلئًا إلى حد ما، ذات بشرة بيضاء، تعلوها إفرازات دهنية من فعل حرارة الجو التي جعلت منها شيئًا مثيرًا للغثيان، وكانت عيناها واسعتين في جحوظ خفيف، أهدابها طويلة مقوسة، يستقر

فوقهما حاجبان غير مزججين، بينما توجد شعيرات خفيفة تحت أنفها الضخم. كان فمها الواسع يفتر دائمًا عن أسنان صفراء لا تفلح شفتاها المبللتان بالروال أن تواريها. عندما جاءت وقفتها أمامنا مباشرة تطلعنا إليها جيدًا فكانت سيماؤها وحركات مقلتيها يظهران ما بداخلها من حيرة وارتباك، كأنها لم ترَ رجالاً منذ زمن بعيد. تركت مكانها وعبرت الشارع إلى الناحية الأخرى من الرصيف التي كنت أقف عليه. اقتربت منا وهي لا تزال محتفظة بابتسامتها. كاد لعابها يسيل من فمها لولا أن لعقته بلسانها.

حل صمت ثقيل فتوقفت خواطري عن التساؤل بعد أن أسكت الأسطى الماكينة كي يتبين الأمر. كان ثمة شيء ما يدغدغ انفعالتنا المكبوتة بحيث يجعلها على وشك الانفجار بالضحك الذي أحدث خيطًا دقيقًا من السخرية يشد شفاه كل منا - أنا والأسطى - خالقًا ابتسامة باهتة. كان هناك شيء لا أعرف كنهه - الذي أرجعت سببه فيما بعد لما كانت تبدو عليه من بلاهة واضحة - يدفعني للسخرية منها. وعلى الرغم من حرصنا على التحلي أمامها بالوقار كما يليق برجلين بالغين حتى ولو لدقائق قليلة. كنا نتمنى انصرافها بسرعة قبل أن ننفجر ضاحكين بقوة في وجهها. ولكني تريث بعدما لاحظت أنها ممسكة في يدها اليمنى بورقة فتأكد لدي بأنها تبحث عن شيء ما بالشارع. كانت قد خمنت بسهولة كل ما يدور بخلدينا ناحيتها فاستبدلت بملامحها جبينًا مقطبًا وابتسامتها بشفتين مزمومتين. تكحلت عيناها بدمع خفيف عندما أصابتها غصة من الحنق الذي شعرت به. كانت على وشك أن تهم مبتعدة لولا أني عاجلتها بسؤالي فالتزمت مكانها: «أي خدمة؟ بتدوري على حاجة؟». لم تعرني اهتمامًا حيث التفتت برأسها باتجاه محل مغلق فوقه لافتة «صالون سوسو» وكأنها لم تسمعني. استدارت بعد لحظة قصيرة لم تتجاوز أكثر مما استغرقته وهي تنفث ما بصدرها خلال تنهيدة عالية ثم قالت بنبرة متهدجة: «أصل جوزي هيخرج النهارده من السجن فكنت عاوزه أتزوق».

بعد أن أنهت قولها أصابها ارتباك شديد بينما اختلجت نظراتها ثم ولت ظهرها إلينا وأسرعت منصرفة.